الحلقة الثامنة والعشرون

الشيخ طنطاوي

من على البعد عرفت وأحببت كثيراً من مشايخ الإسلام وفقهائه.. بل ودافعت ونافحت (فكرياً) عن بعضهم، كدفاعي - في محاضرتي الوحيدة والمفقودة في نادي الطائف الأدبي - عن ثائر الإسلام الأعظم (جمال الدين الأفغاني) الذي عاش ومات من أجل دعوته الجبارة النضرة في سبيل الحرية والعدالة والمساواة ووحدة الأمة في القرن التاسع عشر، كما اختلفت مع بعضهم (سياسياً).. كاختلافي مع رؤية الإمام (محمد عبده) شيخ الأزهر المحبوب، وصاحب صحيفة (العروة الوثقى) المهاجرة، وصديق (الأفغاني) وتلميذه.. الذي كان يرى - وحتى نهاية القرن التاسع عشر -.. بأن (التحرر) من الاستعمار البريطاني لن يتحقق لـ(مصر) إلا بتعليم المصريين ومحو أميتهم، لأعبر عن اختلافي معه.. في الحفل الذي أقامته (دار الهلال) في خريف عام ١٩٩٢م في القاهرة بمناسبة مرور مائة عام على صدور (مجلة الهلال)، التي أصدرها - عام ١٩٨٢ صاحب (الدار).. الأديب والكاتب والروائي المصري المعروف: الأستاذ جورجي زيدان.. الذي بهر المصريين والعالم

العربي برواياته (الإسلامية) الشهيرة.. من أمثال (المملوك الشارد) و(جهاد المحبين) و(عروس فرغانة).. وهو يحمل الصليب فوق صدره!! عندما قلت في كلمتي تلك بعد أن حييت مصر ودورها الثقافي والريادي السياسي الملهم والمعلم لأمتها العربية.. وكأن الإمام محمد عبده - رحمة الله عليه - يحضرنا: بأن من حسن حظ المصريين.. أنهم لم يستمعوا لرؤية (الإمام) التثبيطية حتى ينتظروا محو أمِّية آخر مصري لينالوا حريتهم واستقلالهم!! إذ لو أنهم استجابوا لتلك الرؤية.. لما غادر آخر جندي بريطاني أرضهم في شهر يونيه من عام ١٩٥٤م، وبمصر مايزيد عن الثلاثين بالمئة من الأميين.. إن لم يكن أكثر، فمع الاحترام والتقدير لرؤية (الإمام) التربوية.. بأن (العلم) هو طريق الحرية،، فإن هناك طريقاً آخر لـ (الحرية) هو نضال الشعوب المؤمنة بحقها في الحرية، وهو ما فعلته مصر عبدالناصر.. بعد عامين من قيام ثورة يوليه ٥٢م وكأنها تؤكد ما قاله شوقي في الثلاثينات:

(يا مصر أشبال العرين ترعرعت

ومشت إليك أسودا

والله ما دون الجلاء ويومه

يوم تسميه الكنانة عيدا)

* * *

أما على القرب.. فقد كان من حسن حظي في هذا الجانب أن أتعرف على شيخنا (علي الطنطاوي) سماعاً.. في النصف الأول

من ستينات القرن الماضي، عن طريق الصديق والزميل الدكتور سميح الخضراء.. الذي حدثني عنه، وعن علمه وثقافته وذوقه وخفة ظله وشعبيته الجارفة في بلاد الشام (ويعني بها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.. مجتمعة)، لأتعرف عليه (لقاءً).. في منتصف السبعينات بمنزل (الاستاذ) - على توصيف أهل مكة و- (الشيخ) - على توصيفي - محمد عمر توفيق.. وقد غدا (الفقيه) النجم بين فقهاء عصره.. عبر برنامجيه: الإذاعي التلفزيوني (نور وهداية).. والتلفزيوني (على مائدة الإفطار)، اللذان ظل يقدمهما.. بأعلى نسب المشاهدة والاستماع.. بامتداد سنوات حياته، وإلى أن ناف عن التسعين.. وقعدت به صحته عن مواجهة «مايكروفونات» الإذاعة وكاميرات التلفزيون، ليخبرني وقد تواصلت بيننا الأسباب.. بأن مجيئه إلى مكة والاستقرار فيها تأخر قرابة ربع قرن من الزمان، فقد دعت له (عمته) محبة فيه.. عام ١٩٢٦م بـ (أن يطعمه الله حجة والناس راجعون من الحج، وأن يتحول التراب في يده إلى ذهب)!! وقد تحققت «الأولى» ولم تتحقق الثانية.. فقد تاهت قافلتهم في الطريق إلى مكة.. ثمانية وخمسين يوماً، فلما وصلوها.. كان الحج قد انتهى وغادر معظم الحجاج إلى أوطانهم، إلا أن (مكة ملأته خشوعاً ورهبة).. تلك الأيام، ليعود إليها ثانية وبعد خمسة وعشرين عاماً: «أستاذاً» بكلية الشريعة.. دون أن يحمل الدكتوراه ولكنه كان يحمل علماً شرعياً، ولغوياً، وثقافة موسوعية لم تتأت لكثيرين من حملة الدكتوراه، وهو ما جعله (شيخاً) و(إماماً) للمسجد الذي كان والده يؤم الناس فيه.. إلى

أن مات، ليختاره أهل حي (العقيبة) - في أطراف دمشق - ليكون (إماماً) للمسجد.. خلفاً لأبيه وهو في السابعة عشر من عمره، ليصبح بذلك أصغر إمام تعرفه دمشق.. وربما مساجد العرب جميعاً، فكان بحكم سنه.. يضع طربوشاً على رأسه، ولكن اتفاقاً مع العادة في أن يكون الإمام (معمماً).. فقد اضطر لأن يلف عمامة على طربوشه!! إلا أن بعض رجالات الحي جاءوه ليقولوا له بأنه (لابد وأن تكون للإمام لحية)..؟ فأجابهم على طريقته البارعة في الخلاص من مطبات الأسئلة التي كان يتعرض لها في برنامجيه: (العمامة أتينا بها من (البزاز).. فمن أين آتي بـ (اللحية)؟!

* * *

لكن هذا الشيخ الصغير.. سرعان ما كشف عن مواهبه وقدراته وإمكاناته الكبيرة عندما أصدر كتابه (النقدي) الأول وهو في الواحدة والعشرين من عمره (رسائل الإصلاح)، الذي هاجم فيه المشايخ، وأساليبهم العقيمة وعلمهم المحدود كقول أحد أئمتهم في صلاة جهر: (ألف. لام. ميم.. نشرح لك صدرك) فكان المأمومون خلفه يصيحون (ألم.. ألم)!!.. فتكاتفوا بالرد عليه بمقالاتهم وكتبهم ككتاب (الإفصاح عن رسائل الإصلاح)، ثم كان كتابه الثاني (رسائل سيف الإسلام) وكان هجوماً على الشباب والمشايخ بحد سواء.. وهو ما جعله يخطف الأضواء من أشقائه الذين اعترف لهم - أو جاملهم - بأنهم كانوا «أنفع» منه!! ليثلث بكتابه (الهيثميات) الذي جمع فيه مقالاته التي كان يوقعها بـ (أبو هيثم).. ثم أعقب ذلك بإصداره (مجلة البعث)!!

التي عُرفت وانتشرت في الشام والعراق.. قبل أن يقوم الأستاذان صلاح البيطار وميشيل عفلق بتأسيس حزبهما السياسي المعرف بـ (البعث) العربي الاشتراكي بما يزيد عن العشر سنوات، لتفتح له مصر أبوابها للإقامة فيها.. و(مجلة الرسالة) صفحاتها للكتابة فيها، ليجاور قلمه أقلام أساطين الكتابة آنذاك من أمثال العقاد والرافعي والمازني وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات رئيس تحريرها الأسطوري، الذي توثقت علاقة (الطنطاوي) به.. حتى غدا وكأنه فرد من أفراد أسرته لا كاتباً من كتاب الصف الأول في مجلته.. التي كانت وكأنها إنجيل المجلات التي يتلقى عنها، ويتربى على فكر كتابها مثقفو الأربعينات والخمسينات في مصر وخارجها.. ليسافر عبر صفحاتها قلم الشيخ الطنطاوي واسمه وفكره وأدبه وثقافته إلى بقية أوطان العروبة، فتتضاعف شهرته ويزداد تألقه.. إلى أن بزغ نجم عبد الناصر وحقق في الخمسينات وإلى مشارف الستينات ما لم يحققه زعماء مصر الكبار في الثلاثينات والأربعينات.. ليكتب الأستاذ الزيات مقالاً - بعد الجيشان القومي الكاسح الذي استقبلت به الوحدة المصرية السورية وبطلها في (دمشق) - فضَّل فيه - كما قال الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته - عبد الناصر على الرسول (صلعم) وعلى صلاح الدين.. فانقطعت العلاقة بينهما على الفور، بل وانطوت المرحلة المصرية من حياة الشيخ الطنطاوي، وعاد إلى الشام.. ومنها إلى مكة، ليبدأ حياة جديدة تعتمد على وسائل العصر الجديدة.. من إذاعة وتلفزيون، ليغدو بعد سنوات قلائل نجم فقهاء زمانه بـ (سماحته) واستنارته وجرءته و(خفة

دمه)، التي لم تسلم من تعليقاته الضاحكة.. عندما أثنى عليها أحد مشاهديه، فرد عليه.. قائلاً: (بس إن شاء الله.. ما بتنتقل هذه الخفة من الدم إلى العقل)..!!

* * *

لم تأت هذه النجومية الكاسحة للشيخ علي الطنطاوي من فراغ.. وقد زحفت إليه بداية من (الشام) شاباً، وترعرعت معه في (مصر) كهلاً، وسطعت معه في (مكة) شيخاً: حتى أصبح أحد الثمانية - أو السبعة - المشايخ الذين لهم حق الفتوى في (المملكة) من خارج أبنائها.. ولكنها جاءته من تجاربه، وتراكمات ثقافته الأدبية: قراءة وإبداعاً، ومن وسطيته الإسلامية وعصريته الثقافية، وبعد نظرة في فهم الشريعة ومقاصدها دون تشدد أو تفريط، وجاءته من قبل ومن بعد.. من حلاوة ورشاقة حديثه الذي لا يمل، ومن جمال وذكاء تعليقاته.. ليكون المتفرد بين أقرانه من الفقهاء والمشايخ، الذي لا يخلو رد من ردوده.. من ثقافة، ولا يخلو آخر.. من (طرفة)!!

فـ (الأصل) في الزواج عنده.. (واحدة)!! ومن قال إن (الموسيقى) حرام؟! ومن قال إن الغناء حرام.. إلا أن يدعو إلى كفر صريح..؟ فإذا التقى بـ (الشيخ القمني) الإيراني.. في القاهرة، وقد جاءها في مطلع الستينات لافتتاح مركز للتقريب بين السنة والشيعة؟! قال له: (إن من الخير إقامته في طهران..)!! ثم أضاف قائلاً له: (لكم موقف من بعض الصحابة الذين نترضى عنهم جميعاً: فليس هناك سبيل للتقريب: فإما أن نفعل مثلكم..

وإما أن تفعلوا مثلنا وليس هناك حالة ثالثة)، إلا أنني أذكر إضافته العميقة.. عندما التقيت به في ديسمبر من عام ١٩٩٨م وقبيل عام من رحيله - المأسوف عليه - لإجراء حوار صحفي شامل معه وسألته في ختامه عن حقيقة الخلاف بين الشيعة والسنة؟ إذ قال لي (الخلاف معهم ليس دينياً في الأصول.. ولكنه خلاف سياسي كما يقولون)، ثم أضاف ضاحكاً.. إنه كالخلاف بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية!!

* * *

وبعـــد،

إذا كان للشيخ علي الطنطاوي.. أن لا يفتخر باختيار الداعية الإسلامي الأكبر الشيخ أبو الحسن الندوي.. له - دون الآخرين على كثرتهم - لتقديم (ذكرياته) إلى قرائه وهم بمئات الآلاف.. حتى لا يقع في دائرة التباهي بـ «النفس»، فإن له - بالقياس نفسه - أن يفتخر بحالة (الأسى) التي عاناها لأن صديقه (ميشيل الراوردي) لم يدخل الإسلام وقد كان بينه وبين الإسلام خطوة، كما أن لقراء الشيخ الطنطاوي - في المقابل - أن يفتخروا ويعتزوا بـ (الرصيد) الفقهي والثقافي والأدبي العريض الذي خلفه من ورائه في عشرات المؤلفات، والتي يتصدرها دون شك سفر ذكرياته (ذكريات.. علي الطنطاوي).. أو قصة حياته، ومرحلته وجيله.. على وجه الدقة.. بأجزائه الثمانية، فقد كان تاريخاً وفقهاً وأدباً وفناً وذوقاً.. وخفة ظل لا تنتهي، لم ينس فيها أستاذه (محمد علي

كرد) وملهمه (شكيب أرسلان) وصديقه الأقرب إلى روحه (أنور العطار).. والأقرب إلى فكره (سعيد الأفغاني)، ومعلمه فن الجمع بين الجد والهزل في المواعظ (الشيخ عيد السفرجلاني).. الذي بزّه فيها وفي غيرها (الشيخ الطنطاوي)، إذ لا أظن.. أن أحداً نسي قفلته البديعة والمتكررة لبرنامجه (نور وهداية).. عندما يدع أكثر الأسئلة - المقدمة إليه - حرجاً.. إلى ما قبل نهاية البرنامج بثوان، فيذكر السؤال.. ثم ينظر إلى ساعته، ليحتمي بـ (الوقت) وتجاوزه إذا أراد الإفلات من الإجابة على السائل.. قائلاً: (والله مو بإيدي.. شو باعمل «المخرج» عم بيأشر لي.. أن وقت البرنامج انتهى)!! ثم يشفع ذلك.. بابتسامة ونظرة لا تخلو من مكر وذكاء معجونتين بسماحته وطيبته!!

لقد حمله مجمل إنتاجه الفقهي والأدبي، وحضوره الدائم والشفاف عبر موجات الإذاعة وشاشة التلفزيون.. لأكثر من ثلاثين عاماً.. إلى عربات الخلود، ليبقى في سمع الأجيال وبصرها وذاكرتها: شمساً لا تغيب.. ونجمة لا تنطفئ.

وعندما دنا الأجل منه بعد واحد وتسعين عاماً..!! كان موته رحيلاً هادئاً.. وانتقالاً ناعماً.. من عالمه إلى العالم الآخر، فلم يتغضن وجهه، ولم يتساقط شعره، ولم تذبل ابتسامته الوادعة المطمئنة.. ليلقى ربه بـ «صورته» الوسيمة الجذابة التي كان عليها وعاش بها.. وعرفناه فيها!!